

مناهج كتابة التاريخ الإسلامي

م.د امينة عبد الكريم عبد الستار

تحكمت النظرة الاستعمارية التي اتخذها الغرب منهجاً في تعامله مع الشرق، في تعامل المستشرقين مع الإسلام والنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وسيرته العطرة والتاريخ الإسلامي، فانقسموا إلى فرقتين مختلفتين في الظاهر متفقتين في الباطن، الأولى مجاهرة متعصبة، والثانية متوارية متحاملة. فما لبثوا أن انبرى لهم علماء المسلمين بمنهج قويم مصدره كتاب الله الكريم والسنة النبوية المطهرة، توثيقاً وتثباتاً وتثبيتاً، فكشفوا نوايا المستشرقين وأظهروهم على حقيقتهم بالحجة والمنطق والبرهان، معترفين بما لهم فضل وبما بذلوه من جهد في خدمة التراث العلمي الإسلامي، منبهين إلى بعد معظم المستشرقين عن العلمية والمنهجية رغم ما ادعوه من موضوعية كان القصد منها ستر ما انكشف من تحريف وتزييف ودس على الإسلام وتشويه لوجهه المشرق الوضاء.

مناهج المسلمين في كتابة التاريخ:-

يرتبط الحديث عن مناهج المسلمين في كتابة التاريخ الإسلامي بالحديث عن تدوين التاريخ والهدف منه، فمن المعلوم أن تقصى الرواة الحديثين أدى الى نشؤ أحد فروع التاريخ عند العرب، وهو تراجم الأشخاص وطبقاتهم، كما مهدت العلوم الحديثة لنشأة علم التاريخ نفسه على نحو إجمالي مبتدئاً بتدوين السير والمغازي النبوية بحسب إتباع منهج الإسناد القائم على منهج الجرح والتعديل ولذا فإنه يمكننا القول بأن علم التاريخ قد نشأ وترعرع في أحضان علوم الحديث، حيث استعار علم التاريخ من علم

الحديث أداه نقدية عملية استخدمت في تنقيح وغرلة الأخبار التاريخية منذ أن اهتم العرب بتدوين هذه الأخبار عند منتصف القرن الثاني للهجرة. وكان الهدف من تدوين التاريخ عند المسلمين، في البداية، يرتبط قبل كل شيء بمقتضيات ومتطلبات دينية صرفة.

وفي ارتباط التاريخ الإسلامي بالحديث النبوي الشريف كما نرى حصانة له ووقاية من عبث العابثين وضلال المضللين على مر الدهور والسنين، وقدرة على الاستمرار رغم ما يحاك ضده من مكائد ويهدده من أخطار، فُسنة الله في كونه ماضية وُسنة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) واقية وحامية لما حواه سجل تاريخ الإسلام حاضراً وفي العصور الخالية.

صور الكتابة التاريخية :-

أكثر المؤرخون المسلمون من صور الكتابة التاريخية نذكر منها على سبيل المثال تواريخ العالم الثلاثة التي سبقها كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (مطلع القرن الثالث الهجري) وأولها تاريخ اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر (284هـ) الذي وضع منهجه على أساس التعاقب الزمني للشخصيات، وجمع أحياناً عدة أحداث في سنة واحدة. وثانيها: تاريخ الأمم والملوك - للطبري وهو عند كثير من المؤرخين أعظم أهمية من كتاب اليعقوبي. وقد أسبغ الطبري على كتابه تدقيق المتكلمين وعطاءهم ومناهجهم واتبع في تنظيمه الترتيب الزمني، وسار على منهج الحوليات وثالثها وأعظمها تاريخية من مؤلف المسعودي : "مروج الذهب ومعادن الجوهر" وهو كتاب أدبي يبحث في تاريخ الخليقة. والكتب الثلاثة تعتبر نماذج للتاريخ الإسلامي العالمي في ذلك الحين (نهاية القرن الرابع الهجري).

وقد شهد أوائل القرن الخامس الهجري توقفاً نسبياً لفترة التجربة التاريخية التي تم سد فراغها بتاريخ عالمي في اللغة العربية وهو كتاب "المنتظم" لابن الجوزي الذي أدخل فيه تقسيماً فاصلاً بين الحوادث والوفيات، وهو يشتمل على جميع الأخبار المطلوبة

لمن يفتقدون الوقت أو الصبر على دراسة المصادر الأولى منها كتاب "شُرور العقود" الذي لخص فيه كتابه "المنتظم" .

ولم يلبث المؤرخ المسلم بعد انتشار التدوين في القرن الثاني الهجري أن تحرر تدريجياً من طريقة الإسناد التي كانت تلزم المؤرخ بأن يكون مجرد إخباري، أي ناقل للخبر إلى الكتابة. والمتأمل في هذا يدرك لأول وهلة دوافع المستشرقين الرامية إلى التقليل من شأن الشرق والشرقيين، وأعظمها دافعاً الحسد الذي أيقظ المستشرقين من سباتهم العميق على ضوء علوم الشرق وأنوار علمائه الذين أضاءوا دياجير ظلمات جهل الغرب بشتى صنوف العلوم والمعارف المرسلّة التي تعنى بالخبر في ذاته ومناقشته. وكانت النتيجة هي مدرسة الإمام الطبري ومن سبقه من المؤرخين الذين كانوا يهتمون اهتماماً خاصاً بالإسناد وتسلسل الرواة إلى الاكتفاء بإيراد الأخبار غير المسندة إلى أصحابها. أي ظهور مؤرخين ابتعدوا بالرواية التاريخية عن رواية الحديث النبوي الشريف؛ منهم اليعقوبي (ت 284هـ) والمسعودي علي بن الحسين بن علب (364هـ) اللذان اكتفيا بذكر المادة التاريخية في مقدمات الكتب، دراسة نقدية في بعض الأحيان كما فعل المسعودي في مقدمة كتابه مروج الذهب. ولم يكن ما حدث تطوراً في طريقة الكتابة فقط بل كان تطوراً في أسلوب الكتابة الذي أصبح بسيطاً مرسلأً وواضحاً في آن واحد يكاد معظمه يخلو من الشعر مع استخدام السجع بدلاً من أسلوب الجمل القصيرة الجافة التي لا ترتبط فيما بينها بصلة .

وهنا أيضاً كما نلاحظ ابتعاد عن الالتزام بالأسلوب التاريخي البحت إلى الأسلوب الأدبي باستخدام أسلوب بسيط سهل تتجنب فيه الزخرفة اللفظية والألفاظ الدارجة والاهتمام بإبراز المادة التاريخية في عبارات قصيرة توضح المعنى المقصود في براعة تغني القارئ عن التفريق بين المؤرخ والأديب وبين التاريخ واللغة العربية وهو ما يفرض على المؤرخ أن يكون لغوياً عارفاً بالأدب الذي يضيف سهولة وسلاسة على أسلوب الكتابة التاريخية الذي لم يعد هضمه متيسراً بسبب ما فيه من مادة جافة.

وبجانب هذا الأسلوب وجد من المؤرخين من سلك طريقاً آخر في الكتابة التاريخية وذلك باستخدام أسلوب بسيط سهل يهتم بإبراز المادة التاريخية بعبارات قصيرة توضح المعنى المقصود في براعة يستسيغها القارئ، من هؤلاء ابن الأثير وابن طباطبا وابن حيان، وينفرد ابن الأثير عن غيره من المؤرخين بأسلوب بسيط واضح لا يجاريه فيه أحد ممن كتب قبله أو بعده. وكثيراً ما يدخل في كتاباته عبارات أقرب إلى الأمثال .

وفي أسلوب ابن الأثير نقلة أخرى في طريق تطور الكتابة التاريخية فاستخدام المثل يختصر المطول ويمنع الخلل ويكشف عن الأدواء والعلل ويبعد عن السأم والملل. أما ابن طباطبا فنجدته يلتزم أسلوباً خاصاً به لم يتقيد فيه بروايات الأخباريين السابقين عليه، فهو يعرض مادته التاريخية في وضوح وبساطة وإيجاز. ويظهر ذلك في تناوله لحادثة مقتل الحسين وحادثة واقعة الحرة في عهد خلافة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فهو يقول عن مقتل الحسين: "هذه قضية لا أحب بسط القول فيها استعظماً لها واستفظاعاً، فإنها قضية لم يجر في الإسلام أعظم فحشاً منها، . ولكن هذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسيئ والتمثيل ما تشقعر له الجلود.

ورغم الجهود التي بذلها المؤرخون المسلمون في القرون الأولى للهجرة من أجل أسلوب متميز للكتابة التاريخية يمتاز بالرصانة والمتانة والمرونة والسلاسة، غير أن كتابات المؤرخين المتأخرين في القرنين التاسع والعاشر الهجريين شهدت شيوع أساليب عامية، مثل : ابن إياس في كتابه : "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " وابن الفرات (907هـ) في كتابه "تاريخ الدول والملوك.

مناهج المسلمين في كتابة التاريخ الإسلامي

التزم المؤرخون العرب (المسلمون) بالرغم من تعدد صور الكتابة التاريخية بينهم، منهجين في كتاباتهم التاريخية. الأول: منهج التاريخ الحولي أو التاريخ حسب

السنين، والثاني: المنهج الموضوعي أو منهج التاريخ حسب الموضوعات. أما منهج التاريخ الحولي فهو منهج يقوم على تجميع ما اختلف من الحوادث في كل سنة والربط بينها بكلمة "وفيها" أي في السنة من أول حدث وقع فيها إلى آخر يوم منها، حتى إذا انتهت حوادثها، انتقل المؤرخ إلى حوادث السنة التالية، وذلك باستخدام جملة بدلاً عن كلمة "ثم دخلت سنة كذا" أو "جاء في سنة كذا".

وما يجب التنبيه له في هذا المنهج هو أن السنة هي التي تتحكم في الحوادث وليس الحوادث هي التي تتحكم في السنة كما يجب، ولذلك فإن السنة تشمل الحوادث المنتهية وليس كل الحوادث الممتدة، فالمؤرخ الحولي لا يذكر من سياق الحادثة التاريخية إلا ما يخص حوادث السنة التي يجمع كل أحداثها، وفي هذا عيب لا يخفى يتمثل في تمزيق سياق الحادثة التاريخية الطويلة. وقد قوبل هذا المنهج بالنقد من قبل مؤرخين مسلمين أشهرهم ابن الأثير (555 - 630هـ) الذي حاول بقدر المستطاع تجنب الوقوع فيما وقع فيه المؤرخون الحوليون فقام بجمع عناصر الحالة التي تتصل إلى عدد من السنين واصلاً بين أجزائها في سنة معينة وفي موضع واحد حتى تبرز القيمة الخبرية للحادثة، لكنه مع ذلك لم يستطع في جميع الأحوال أن يطبق هذه الطريقة دائماً، إلا أنه وفق في تيسير مهمة القارئ وذلك لوضعه للأحداث في عناوين تعلن عن مضمونها، أيضاً قام بنقد المنهج الحولي الكاتب الكبير النويري (732هـ) باتخاذ المنهج الموضوعي كاتباً في تاريخ الدول دولة فدولة، فلا ينتقل من الحديث عن تاريخ دولة إلا إذا انتهى من عرض تاريخ الدولة السابقة، متبعاً في نفس الوقت المنهج الحولي في ذكر أحداثها مقسماً التاريخ الإسلامي إلى دول مبتدئاً بالسيرة النبوية.

إلا أن أول مؤرخ وصل تاريخه مرتباً على السنين هو عمدة مؤرخي العرب الإمام الطبري الذي ذاعت شهرته بتفسيره للقرآن الكريم المعروف بتاريخ الطبري، وبكتابه التاريخ العظيم "تاريخ الرسل والملوك" أقدم مصدر كامل للتاريخ العربي رتبت حوادثه وفقاً للمنهج الحولي من الهجرة إلى سنة 302هـ واتبعت في روايته طريقة الإسناد بإسناد الرواية إلى سلسلة من الرواة توثيقاً للأخبار التي يرويها لا يفضل

رواية على رواية مكتفياً بعرض الروايات فيقف بذلك موقفاً حيادياً وهو في هذا يشبه من المؤرخين السابقين: عبدالرحمن بن عبد الحكم (ت 257هـ) وأحمد بن جابر البلاذري، أبوالحسن أحمد بن يحيى (ت 279هـ) الذي تأثر بما دونه الواقدي و المدائني وغيرهما في الفتوح. وقد اعتمد على الطبري من المؤرخين ممن جاء بعده مكسويه، وابن الأثير والذهبي وغيرهم.

ولأن منهج المستشرقين قام على التشكيك في كل ما هو إسلامي وفيما سبقهم فقد بادر "روزنثال" إلى الشك في أن الطبري هو أول من طبّق الصور الحولية على الكتابة التاريخية وذلك لكبر حجم كتابه من جهة، ولوصول أخبار تشير إلى استعمال المؤرخين الأوائل لصورة الحوليات قبل الطبري، إذ إن الكتابة التاريخية على المنهج الحولي كانت معروفة في العراق في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، كما أن فكرة الكتابة التاريخية على المنهج الحولي أو وفق السنين في رأيه ليست ابتكاراً لمؤرخي العرب، فقد كانت معروفة في الكتب الإغريقية وأنها انتقلت إلى مؤرخي العرب الأولين عن طريق اتصالهم بأولي العلم من السريان المسيحيين أولاً ثم عن طريق رجوعهم إلى المصادر الإغريقية الأصلية مباشرة.

ولكنه رغم اعتقاده بأن مؤرخي العرب قد استلهموا طريقة التاريخ الحولي من مؤرخي الإغريق والسريان، فهو يعترف بأن الكتابة الإغريقية لم يكن لها تأثير على مؤرخي العرب، وإنما اقتصر على علوم الفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافية والكيمياء والطب والحشائش والعقاقير، وأن العرب أبدعوا في هذه الطريقة وطوروها، فما هو ذا روزنثال يتناقض مع نفسه ويرد عليها بنفسه مرسّخاً النظرة الاستعلائية من جانب الغرب إلى الشرق من خلال اعترافه الصريح بأن المنهج الإغريقي السرياني الحولي لم يكن له تأثير على مؤرخي العرب، وبالتالي ينفي ما ذكره من أخذ العرب للمنهج الحولي من الإغريق والسريان ويثبت للإمام للطبري حق السبق في هذا المنهج عن طريق نفي الاستلham والاقْتباس في غياب المؤثر، ووصف العرب بالإبداع والتطور الذي يقابله التخلف في الغرب، ومع الإقرار بأن التاريخ العربي لم يأخذ منهجه الحولي عن الغرب، فهذا يعكس مدى الأزمة الأخلاقية التي يعيشها المستشرقون

الغربيون تجاه كل ما هو إسلامي، فعندما لا يجدون من يهتم بأمرهم يقومون بالرد على أنفسهم فيفتضح أمرهم وتتكشف أباظليهم.

فروزنتال هاله أن يصدر عمل ضخم من مؤرخ عربي فلم يجد بدأً من الشك ولكنه في ذكره من سبق الطبري لهذا المنهج كان يبحث عن مؤرخ عربي ينسبه له فلما لم يجد من هو في مقام الطبري نسبة إلى منهج الإغريق والسريان، وليس إلى مؤرخ إغريقي أو سرياني وفي هذا إثبات لسبق الطبري وعلو كعبه في هذا المنهج ..

ولأن "روزنتال" يشك فان الأستاذ عبدالحميد العبادي لا يشك في أن توقيت الأحداث بالسنيين والشهور والأيام ضابط إنفرد به مؤرخو المسلمين من اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى. وفي مقابل شك "روزنتال" تؤكد الدكتورة سيده كاشف أن الكتابة التاريخية السريانية لم يكن لها قط تأثير على المؤرخين المسلمين على الرغم من قيام مدارسهم في "الرها" و"تصيبين" و"جنديسابور" بممارسة نشاطها العلمي في الترجمة عن طريق الإغريق، وأن التأثير الذي نلمسه عند بعض المؤرخين المسلمين القدماء إنما كان في كتب التاريخ الفارسية فيما يختص بالتاريخ الإيراني القديم.

وفي العصور الإسلامية المتأخرة طرأ تطور على كتابة التاريخ الحولي بإحساس المؤرخين المسلمين بالحاجة إلى ترتيب إضافي للمادة التاريخية في وحدات زمنية أوسع، بإدخال التقسيم الفرعي للحوادث بتتبع نظام العقود من السنة الأولى إلى السنة العاشرة كما فعل المؤرخ الإسلامي الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (673-748هـ) في كتابه الكبير "تاريخ الإسلام" غير أنه استمد نظام العقود في تاريخه من تاريخ السيرة رابطاً بذلك بين أدب الطبقات والتراجم، الذي ترجع إليه أصول التقسيم حسب القرون ككتاب "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلاني ومثله من الكتب. وهي إما مرتبة حسب السنين أو حسب حروف الهجاء. وقد تفنن علماء المسلمين في الكتابة التاريخية فتعددت مناهجهم وتنوعت لتاريخهم الإسلامي الذي كانت معرفته عند المسلمين تتساقب من أعلى طبقات المجتمع إلى جميع طبقات الموظفين والعلماء ومن كانوا يريدون لأنفسهم من الثقافة

نصيباً. وكان المنهج العلمي في تدوين التاريخ الذي بدأه السخاوي بتأليفه لكتاب "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" وقد كتب للدفاع عن التاريخ كموضوع ثقافي يساعد في مناهج الدراسة الدينية. وقد رأى روزنثال أن الكتاب يمثل منهج رجل مفعم بالحماس لجمع التفاصيل. وهو يمثل نهاية حقبة عظيمة من البحث عن معضلات كتابة التاريخ الإسلامي. وهو يمثل أيضاً عرضاً شاملاً ورائعاً لعلم التاريخ الإسلامي.

ويجئ منهج المعاينة والمشاهدة ليؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن المؤرخين المسلمين قد سلكوا جادة الطريق والتزموا التثبت والتيقن في تتبعهم الحوادث وذكرها مهما كلفهم ذلك، فمحمد بن عمر الواقدي المؤرخ الذي سارت لذكره الركبان، لم يمنعه ما بلغه من مكانة وحازه من شهرة من البحث المضني عن أصح المصادر وأصدقها وأوثقها لما يكتب حتى كان يقول (ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء، ولا مولى لهم إلا سألتهم، هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده..؟ وأين قتل؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضوع فأعابنه ..") فالمعاينة تدل على منهج سليم من مناهج كتابة التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأولين، تمتزج فيه المعاينة بالمعرفة وتتكون من ذلك الحقيقة التاريخية التي ينشدها.

ولأن المؤرخين المسلمين كانوا يظهرون تقديراً خاصاً للوثائق ذات القيمة التاريخية فقد أفردوا لها منهجاً وهو منهج استخدام الوثائق والنقوش والنقود، فتضمنت كتب التاريخ الكثير من الوثائق التي وردت في شكل آداب السلطان خاصة ما كان من نوع الخطابات الدينية الزهدية. وتجدر الإشارة إلى أن المؤرخين المسلمين استخدموا نقوشاً تاريخية دقيقة، وخاصة مما كتب بالعربية، وقد أورد بعضاً منها بعض مؤلفي التواريخ العامة. كما عرف المؤرخون المسلمون النقود كمصدر من المصادر التاريخية ورووا أخبار الكشف عنها .

منهج النظرة الكلية للتاريخ

ولعل طريقة المنهج الحولي التي سار عليها أوائل المؤرخين المسلمين هي التي حالت بينهم وبين الربط الكلي لوقائع التاريخ، فغابت عنهم النظرة الكلية لجوهر التاريخ، حتى جاء ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (732- 808) فكشف في مقدمته الرائعة عن نظرة كلية للتاريخ، وإدراك عميق لجوهره حتى عدّه مؤرخو أوروبا في العصر الحديث " شيخ مؤرخي المسلمين"، وهي نظرة إن غفل عنها مؤرخو المسلمين قبل ابن خلدون فإن التاريخ الأوربي غفل عنها حتى عصر الاستتارة أو ما يعرف بالنهضة. وكانت مآثر ابن خلدون على علم التاريخ إنه حمل الواقعة من اطارها الجزئي إلى إطارها الكلي، ومن غمار الواقعة إلى إطار المكان والزمان.